الرحـلة العاشرة

هَذِهِ هِيَ الرِّحْلَةُ الْعَاشِرَةُ مِنْ رِحْلَاتِ الدُّرُوسِ الَّتِي عُنْوِنَتْ بِـ: (**يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا: سَفِينَةٌ مَاخِرَةٌ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ**).

وَمَا زَالَ الْكَلَامُ يَتَوَاصَلُ حَوْلَ الِاحْتِضَارِ؛ لِأَنَّنَا مَا أَعْطَيْنَاهُ حَقَّهُ كَامِلًا؛ لِذَلِكَ سَيَكُونُ الْإِبْحَارُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ رِحْلَاتِنَا الْبَحْرِيَّةِ أَيْضًا انْطِلَاقًا مِنْ مِينَاءِ الِاحْتِضَارِ.

قُلْنَا إِنَّ الْمُحْتَضَرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَدَخَلَتْهُ السَّكَرَاتُ، قَدْ يَضْعُفُ وَيَسْتَسْلِمُ وَيُعَانِي مِنَ الشِّدَّةِ وَالْأَلَمِ، وَقَدْ يَحْضُرُ عَقْلُهُ وَيَغِيبُ.

وَهَذَا الْمَوْطِنُ قَدْ يُفْتَتَنُ فِيهِ الْمُحْتَضَرُ فِي آخِرِ لَحَظَاتِهِ. وَالْمَعْلُومُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْتَهِدُ أَنْ يَحْضُرَ ابْنَ آدَمَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (**كِتَابِ الْأَشْرِبَةِ، بَابِ آدَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَأَحْكَامِهِمَا**) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ**).

وَقَدْ يَحْرِصُ الشَّيْطَانُ أَكْثَرَ فِي مَوْطِنِ الِاحْتِضَارِ عَلَى إِغْوَاءِ هَذَا الْمِسْكِينِ الْمُحْتَضَرِ، وَلَا يَتْرُكُهُ يَمُوتُ عَلَى التَّوْحِيدِ، بَلْ يَؤُزُّهُ أَزًّا حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ إِضْلَالِهِ فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْعَصِيبَةِ، وَقَدْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

هَذَا (الشَّيْطَانُ) الَّذِي قَدْ أَقْسَمَ قَدِيمًا بِعِزَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لَيُغْوِيَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ) حَاكِيًا قَوْلَهُ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83].

وَقَدْ جَاءَ فِي كَلَامِ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ إِبْلِيسَ يَحْضُرُ مَعَ أَعْوَانِهِ عِنْدَ الْمُحْتَضَرِ، يَقُولُ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ فَاتَكُمُ الْيَوْمَ لَمْ تَلْحَقُوا بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهُوَ مَنْ هُوَ- يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ أَنْ تَتَخَبَّطَهُ الشَّيَاطِينُ عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَا فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (فِي سُنَنِهِ، كِتَابِ الصَّلَاةِ، بَابٍ فِي الِاسْتِعَاذَةِ) عَنْ أَبِي الْيَسَرِ كَعْبِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرَدِّي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَرَقِ وَالْحَرَقِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ..).

وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَمْرُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ أَنْ يَحْضُرَهُ الشَّيَاطِينُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 97-98].

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، بِعِزَّتِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ

أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي». (ذَكَرَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ" وَقَالَ: صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ).

وَرُوِيَ أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، كَانَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ يُلَقِّنُهُ، يَقُولُ: يَا أَبَتِ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ يَقُولُ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ. فَلَمَّا أَفَاقَ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: يَا أَبَتِ، حِينَ لَقَّنْتُكَ كُنْتَ تَقُولُ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ! فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ عَاضًّا عَلَى أَنَامِلِهِ وَهُوَ يَقُولُ: فُتَّنِي يَا أَحْمَدُ! فُتَّنِي يَا أَحْمَدُ! وَأَنَا أَقُولُ لَهُ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ. (رَوَى ذَلِكَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ فِي "سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ"، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي "حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ"، وَالْقُرْطُبِيُّ).

وَقَدْ يَأْتِي الشَّيْطَانُ لِبَعْضِ النَّاسِ وَهُمْ يُحْتَضَرُونَ، فَيَأْتِي لِهَذَا الْمُحْتَضَرِ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الدِّينَ النَّصْرَانِيَّ الْمُحَرَّفَ أَوِ الْيَهُودِيَّةَ. قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ فِي كِتَابِهِ "التَّذْكِرَةُ فِي أَحْوَالِ الْمَوْتَى وَأُمُورِ الْآخِرَةِ": (سَمِعْتُ شَيْخَنَا [الْإِمَامَ أَبَا الْعَبَّاسِ] ... يَقُولُ: حَضَرْتُ أَخَا شَيْخِنَا أَبِي جَعْفَرٍ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُرْطُبِيِّ بِقُرْطُبَةَ وَقَدِ احْتُضِرَ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَكَانَ يَقُولُ: لَا، لَا. فَلَمَّا أَفَاقَ، ذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَتَانِي شَيْطَانَانِ... (يَقُولُ أَحَدُهُمَا): مُتْ يَهُودِيًّا. وَيَقُولُ الْآخَرُ: مُتْ نَصْرَانِيًّا؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ الْأَدْيَانِ. فَكُنْتُ أَقُولُ لَهُمَا: لَا، لَا).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لَمَّا سُئِلَ عَنْ عَرْضِ الْأَدْيَانِ عِنْدَ الْمَوْتِ، قَالَ: (أَمَّا عَرْضُ الْأَدْيَانِ عَلَى الْعَبْدِ وَقْتَ الْمَوْتِ، فَلَيْسَ هُوَ أَمْرًا عَامًّا،

وَلَكِنَّهُ أَيْضًا لَيْسَ مُنْتَفِيًا نِهَائِيًّا عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ الْأَدْيَانُ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ).

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِأَقْوَامٍ، وَلَمْ يَقَعْ لِآخَرِينَ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ الَّتِي أَمَرَنَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا وَنَبِيُّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَسْتَعِيذَ مِنْهَا فِي صَلَاتِنَا.

(مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى، الْمُجَلَّدُ الرَّابِعُ، ص 255).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الرُّكَّابُ، هُنَاكَ أَمْرٌ يَحْسُنُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ، هُوَ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ. قَدْ يَغْفُلُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَيَتَنَاسَاهُ، لَاسِيَّمَا عِنْدَ اقْتِرَابِ الْمَوْتِ. وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِاللهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (كِتَابِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، بَابِ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.»

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَعْفُو عَنْهُ). وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: يُسْتَحَبُّ لِلْعَبْدِ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ أَنْ يُغَلِّبَ رَجَاءَهُ عَلَى خَوْفِهِ؛ يَرْجُو اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَرْحَمَهُ وَيُسَامِحَهُ وَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ وَيَغْفِرَ لَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ الْمَطْلُوبَ هُنَا هُوَ الَّذِي يَتَأَتَّى مِنَ الْعَبْدِ الطَّائِعِ لِرَبِّهِ، الْقَائِمِ بِحُقُوقِهِ، الْوَاقِفِ عِنْدَ حُدُودِهِ، الْمُجْتَهِدِ فِي عِبَادَاتِهِ؛ فَإِذَا نَامَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ حَسَّنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ رَجَاءً وَطَمَعًا فِي عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِذَلِكَ الَّذِي أَفْنَى عُمْرَهُ فِي مَعَاصِي اللهِ جَلَّ وَعَلَا، عَاكِفًا عَلَى ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ، مُضَيِّعًا لِحُقُوقِ اللهِ، مُفَرِّطًا فِي عِبَادَتِهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ الْمَوْتُ حَسَّنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا! وَمِنْ هُنَا، فَحَقِيقَةُ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ هُوَ الِافْتِقَارُ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالِانْقِيَادُ وَالِاسْتِسْلَامُ لِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَعْمَلُوا حَسَنَةً، وَقَالُوا: نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ. كَذَبُوا! لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ).

الموقع الرسمي للشيخ أبي قتيبة عمر بن محمد الطاهر شابي

وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ يُحْتَضَرُ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فَقَالَ: أَرْجُو اللهَ وَأَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ». (مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِين).

كَانَ شَيْخٌ مُقَدَّمٌ فِي أَهْلِهِ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، مَرِضَ مَرَضَ الْمَوْتِ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ، فَسَأَلَهُ أَحَدُ أَبْنَائِهِ: مَا هَذَا الَّذِي يَحْدُثُ

لِي؟ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَمُوتُ. فَقَالَ: وَأَيْنَ سَيُذْهَبُ بِي؟ قَالَ: إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا. قَالَ: لَا جَرَمَ أَنَّهُ سَيُذْهَبُ بِي إِلَى الَّذِي لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ. وَالسَّلَامُ.

يَا مَعَاشِرَ الرُّكَّابِ الْكِرَامِ، وَهُنَا كَذَلِكَ نُنَبِّهُ عَلَى أَمْرٍ يَحْدُثُ كَثِيرًا، لَاسِيَّمَا إِذَا طَالَ الْمَرَضُ بِالْإِنْسَانِ، وَلَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ هَذَا الشَّخْصُ طَاعِنًا فِي السِّنِّ، شَيْخًا وَهِرِمًا، قَدْ يَكُونُ أَحَدُهُمْ أَوْ أَهْلُهُ يَلْجَؤُونَ إِلَى اسْتِعْجَالِ الْمَوْتِ؛ تَخَلُّصًا مِنْ تَبِعَاتِ الْمَرَضِ أَوْ كِبَرِ السِّنِّ. وَيَنْسَى هَذَا أَوْ هَؤُلَاءِ أَنَّ الدُّعَاءَ بِالْمَوْتِ وَالرَّحِيلِ لَنْ يُؤَثِّرَ فِي الْأَجَلِ الْمَحْتُومِ الْمَوْقُوتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [الْمُنَافِقُونَ: 11]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: 34]. فَهَؤُلَاءِ بِدُعَائِهِمْ هَذَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ فَقَطْ.

وَاسْمَعْ -رَعَاكَ اللهُ- إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانًا لِهَذَا الْأَمْرِ :عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ (امْرَأَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَشْتَكِي، فَتَمَنَّى الْعَبَّاسُ الْمَوْتَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمِّ، لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا فَإِنَّكَ تُؤَخَّرُ فَتَزْدَادَ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا فَإِنَّكَ تُؤَخَّرُ فَتَسْتَعْتِبَ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ». (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَهُوَ عَلَى شَرْطِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ).

وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ فِي "الصَّحِيحَيْنِ" مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ): «... وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي.»

وَكَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُونَ أَشَدَّ حِرْصًا عَلَى أَنْ يُخْتَمَ لَهُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي آخِرِ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِمْ حِينَ الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ وَالِانْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكَ تَعْجَبُ مِنْ حَالِهِمْ حَتَّى إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ الدَّرْسَ وَالْمُذَاكَرَةَ وَهُمْ يَمُوتُونَ .(ذُكِرَ) فِي تَرْجَمَةِ الْقَاضِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْجَرَّاحِ التُّجِيبِيِّ ثُمَّ الْمِصْرِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 217 لِلْهِجْرَةِ)، تِلْمِيذِ الْقَاضِي أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: مَرِضَ أَبُو يُوسُفَ فَأَتَيْتُهُ أَعُودُهُ، فَوَجَدْتُهُ مُغْمًى عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ لِي: مَا تَقُولُ فِي مَسْأَلَةٍ؟ قُلْتُ: فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ؟! قَالَ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ، نَدْرُسُ، لَعَلَّهُ يَنْجُو بِهِ نَاجٍ. ثُمَّ قَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيُّمَا أَفْضَلُ فِي رَمْيِ الْجِمَارِ: أَنْ يَرْمِيَهَا الرَّجُلُ مَاشِيًا أَوْ رَاكِبًا؟ قُلْتُ: رَاكِبًا. قَالَ: أَخْطَأْتَ. قُلْتُ: مَاشِيًا. قَالَ: أَخْطَأْتَ. قُلْتُ: قُلْ فِيهَا. قَالَ: أَمَّا مَا كَانَ يُوقَفُ عِنْدَهُ لِلدُّعَاءِ فَالْأَفْضَلُ أَنْ يَرْمِيَهُ مَاشِيًا، وَأَمَّا مَا كَانَ لَا يُوقَفُ عِنْدَهُ فَالْأَفْضَلُ أَنْ يَرْمِيَهُ رَاكِبًا. ثُمَّ قُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ، فَمَا بَلَغْتُ بَابَ الدَّارِ حَتَّى سَمِعْتُ الصِّيَاحَ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ. رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

كَمَا قُلْتُ لَكَ يَا رَاكِبَ السَّفِينَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ –سَدَّدَكَ اللهُ– إِنَّ سَلَفَنَا الصَّالِحِينَ كَانُوا يَسْتَحْضِرُونَ هَذَا (أَيْ: أَمْرَ الِاحْتِضَارِ)، فَهِيَ آخِرُ اللَّحَظَاتِ الَّتِي سَيُفَارِقُ فِيهَا الْعَبْدُ دُنْيَاهُ، وَكَانُوا يَخْشَوْنَهَا كَثِيرًا.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الآخِرَةِ

وَلَمَّا احْتُضِرَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَكَى، فَقِيلَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى بُعْدِ سَفَرِي وَقِلَّةِ زَادِي، وَأَنِّي أَهْبِطُ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، وَلَا أَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا (أُصَيَّرُ). (ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي "الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى" وَالْبُخَارِيُّ فِي "التَّارِيخِ الْكَبِيرِ").

وَلَمَّا احْتُضِرَ مُعَاذٌ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ! زَائِرٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ. اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِجَرْيِ الْأَنْهَارِ وَلَا لِغَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أُحِبُّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِمُكَابَدَةِ اللَّيْلِ (بِالْقِيَامِ)، وَظَمَأِ الْهَوَاجِرِ (بِالصِّيَامِ) فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ (بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ).

وَلَنْ تَفُوزَ بِذَلِكَ إِلَّا بِمُدَاوَمَتِكَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَتَجَنُّبِ جَمِيعِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ. وَلِأَنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَفْجَأُكَ الْمَوْتُ، وَمَتَى يَنْزِلُ بِكَ الْأَجَلُ. فَرُبَّمَا أَنْتَ بِمَعْزِلٍ عَنْ مَعْصِيَةٍ، فَتَمِيلُ نَفْسُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، فَيُفَاجِئُكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ. فَاحْذَرْ مِنْ هَذَا الْحَالِ؛ لِأَنَّهَا تُفْضِي إِلَى الْخَيْبَاتِ وَالْفَوْتِ وَالْحَسْرَةِ وَالشَّقَاءِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 258 مِنَ الْهِجْرَةِ): (أَوْثَقُ الرَّجَاءِ رَجَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَأَصْدَقُ الظُّنُونِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ).

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَالُكَ كَحَالِ ذَاكَ الَّذِي يَتَرَقَّبُ قُدُومَ عَزِيزٍ عَلَيْهِ أَطَالَ الْغَيْبَةَ، وَأُخْبِرَ بِأَنَّهُ سَيَحْضُرُ حَالًا، وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَيَنْظُرُ إِلَى سَاعَتِهِ أَوْ جَوَّالِهِ مُتَلَهِّفًا لِوُصُولِهِ.

وَاسْمَعْ إِلَى ذَلِكَ الْقَائِلِ وَقَدْ أَحْسَنَ فِيمَا قَالَ:

قَدْ سَمِعْنَا الْوَعْظَ لَوْ يَنْفَعُنَا * وَقَرَأْنَا نَثْرَ آيَاتِ الْكُتُبْ**

كُلُّ نَفْسٍ سَتُوَافَى سَعْيَهَا * وَلَهَا مِيقَاتُ يَوْمٍ قَدْ وَجَبْ**

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُلُوكٍ سَادَةٍ ***رَجَعَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَانْقَلَبْ

فِرَّ (الْمَرْءُ) مِنَ الْمَوْتِ وَهَلْ * يَنْفَعُ الْمَرْءَ مِنَ الْمَوْتِ الْهَرَبْ؟**

كُلُّ نَفْسٍ سَتُقَاسِي مَرَّةً * كَرْبَ الْمَوْتِ، فَيَا بُؤْسَ النَّصَبْ**

(يَا بَنِي آدَمَ) مَا حَالُ بِكُمْ؟ * عَجَبًا مِنْهُ! نُزُولٌ ثُمَّ قَبْرٌ وَنُشُورٌ وَجَلَبْ**

وَحِسَابٌ وَكِتَابٌ وَحَفِيظٌ * وَمَوَازِينُ وَنَارٌ تَلْتَهِبْ**

هَكَذَا... تَرِدُنَا الْإِشَارَةُ مِنْ غُرْفَةِ الْمُرَاقَبَةِ بِاقْتِرَابِ انْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ الْعَاشِرَةِ. أَرْجُو أَنَّكُمُ اسْتَمْتَعْتُمْ بِمَا قُدِّمَ لَكُمْ فِيهَا مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى. نَعُودُ إِلَى دِيَارِنَا وَأَهْلِنَا قَائِلِينَ (مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ): «آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ.» سَائِلِينَ مَوْلَانَا تَعَالَى الْإِعَانَةَ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَبِلَادَنَا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ